دراسات تاريخية المجلد العاشر العدد الثاني السنة 1444هـ /2022م ص ص 302-313

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

أوضاع الحجاز في كتابات الرحالة الجزائريين رحلة الحسين الورثلاني من خلال " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" أنموذجا "

The situation of Hijaz through the Algerian travellers, "The Journey of Hussein Al-Wurtalani through " the outing of sight in the Best of History and News' as model"

د. كريم مقنوش

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور

karimhamoud.34@hotmail.com

الارسال: 07-03-2022 القبول : 02-04-2022 النشر: 03-10-2022 المرسل: كريم مقنوش

الملخص:

شكّلت الحجاز اهتمام كبير من طرف الرحالة الجزائريين خلال العهد العثماني، إذ يعتبر الحج أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأناً عند المسلمين عامة والمغاربة خاصة، والحسين الورثلاني من بين الرحالة الجزائريين الذين اهتموا بهذه المنطقة وألّفوا لها، وتُعد رحلته من بين أهم الرحلات التي تناولت مختلف الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. اشتملت رحلته على معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة المعيشية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات وغيرها.

الكلمات الدالة : الحسين الورثلاني، الرحلة الحجازية، الفترة العثمانية، نزهة الأنظار، الحجاز.

Abstract

The Hijaz was of great interest to Algerian travellers during the Ottoman era, as hajj is considered the most important and greatest motivation of the journey among Muslims in general and Moroccans in particular, and Hussein Al-Wurtalani is among the Algerian travellers who took an interest in and composed of this region, and his journey is among the most important trips that dealt with various social, cultural and political aspects during the 12th century. His journey included very important information related to daily life, living situation, style of government, level of culture, nature of customs, etc.

Keywords : Al-Hussein Al-Wurtalani; trip Al-Hijaz; Ottoman period; The sight-seeing ride; Al-Hijaz.

المقدمة:

عرف التراث الجزائري كتابة الرحلة الحجازية خاصة في القرن الثاني عشر الهجري القرن الثامن عشر الميلادي، والذي يعتبر من أهم القرون التي أسهم فيها الجزائريون إسهاما واضحا في كتابة رحلاتهم بمختلف أنواعها، وشكلت منطقة الحجاز اهتمام كبير من طرف الرحالة الجزائريين إذ أرّخوا لهذه المنطقة، ويعتبر الرحالة الحسين الورثلاني واحدا من بين الرحالة الجزائريين الذين اهتموا بهذه المنطقة وكتبوا وألّفوا لها، وتعدّ رحلته من بين أهم الرحلات التي تناولت مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والثقافية للحجاز، ومصدر من المصادر المهمة المعتمدة للمؤرخين والباحثين، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، وتعتبر الوحيدة المطبوعة في شكلها الكامل. وعليه تمحورت اشكاليتنا في تقصي أوضاع منطقة الحجاز من خلال ما ذكره لنا الرحالة الورثلاني، والمنهج الذي اتبعه في كتابة رحلته التاريخية إلى الحجاز، وفيما تجلت القيمة التاريخية والعلمية للرحلة؟

1. الحسين الورثلاني المولد والنشأة:

هو الحسين بن محمد السعيد الورثلاني نسبة إلى بني ورثلان من مواليد سنة 1125 هـ/ 1713 م، وتوفي سنة 1193 هـ/ 1779 م، من أسرة عريقة وشريفة صاهر أسرة محمد أمقران حاكم منطقة قنزات، وأصبح شيخ علم معترفا له، وأسس نفوذ الأسرة الروحي في المنطقة، فاجتمع في أصول الورثلاني الدنيا والدين، الدين عن طريق جده ووالده، والدنيا بواسطة أخواله أولاد أمقران الذين كانوا حكاما ورجال سيف، وتزوج من إحدى بنات أسرة المسعود بن عبد الرحمن[1].

ويذكر أبو القاسم محمد الحفناوي في كتابه " تعريف الخلف برجال السلف" عن الورثلاني يقول:" هو الإمام العالم شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، الجامع بين المعقول والمنقول، ومربب السالكين وقدوة العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين، العالم الرباني والقطب الصمداني والشريف النوراني الشيخ سيدي الحسين الورثلاني، كان رحمه الله مجاب الدعوة شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم، ليله قائم ونهاره صائم"[2].

نشأ الحسين الورثلاني نشأة فقيرة أساسها التقشف الصوفي، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة في المدرسة التي كان يديرها والده، وبعد أن شبّ ذهب يبحث عن العلم في مختلف الزوايا فتعلّم الفقه والنحو، ثم أضاف علمي التصوف والتوحيد، بالإضافة إلى اللغة والأدب والعروض والتاريخ، وبالتالي أصبح الورثلاني مثل جده ووالده من علماء المنطقة ومن الذين يدين لهم الناس بالطاعة والاحترام، فأصبح من المدرسين وشيخ زاوية الأسرة[3].

من الكلمات التي تتسم بأسمى الآداب والأخلاق التي استعملها الحسين الورثلاني مثل سيدي، الولي الصالح، شيخنا القطب الكامل وغيرها، والتي أجاد فيها كل الإجادة عند ذكر مشايخه فهي دليل على مدى احترام الذي يكنه لهم رغم كثرتهم ومن بينهم، والده محمد السعيد الذي حفظ القرآن على يده، والشيخ محمد بن يحي الفقيه المفتي، والشيخ ابن عمر التدليسي، والشيخ الحسين بن اعراب، أخذ منهم الفقه والنحو والآداب، هؤلاء الشيوخ بدأ معهم مسيرته العلمية، فواصل مشواره العلمي على يد ثلة أخرى أمثال الشيخ الموهوب، والشيخ أحمد بن عبد العظيم، والعلامة الفاضل علي بن احمد صاحب الطريقة الشاذلية[4].

كما أجازه شيوخ آخرين في مختلف العلوم الشرعية مثل الشيخ أبي القاسم الربيعي القسنطيني، وعلي الصعيدي، وعمر الطحلاوي، والزياني، وأحمد الاشبيلي، والصباغ الاسكندري، والهاشمي المغربي، وإبراهيم بن علي شعيب التونسي، وغيرهم[5].

1.1 الإرث العلمي:

ترك لنا الحسين الورثلاني إرثاً علميا من عدة مؤلفات أغلبها في علوم الفقه والتصوف والتوحيد، وأكبر انجاز قام به في علم التاريخ والأخبار وهي الرحلة التي نحن بصدد التحدث عنها والموسومة بـ " **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار** "، والمعروفة بالرحلة الورثلانية فهي نتاج رحلاته الثلاث إلى الحجاز، والتي تصف لنا الديار المقدسة، وقد وصفها الحفناوي بما يلي:" الرحلة السنية التي سارت بها الركبان وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها فهي حصن حصين"[6]، بالإضافة إلى كتب أخرى نذكرها كالتالي:

شرح كتاب الصلاة، كتاب الرحلة السنية، شرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف، شرح بردة البوصيري، حاشية على كتاب المرادي، شرح خطبة الصغرى للسنوسي، حاشية على حاشية الكتاني على شرح السنوسي، قصيدة ميمية في النحو 500 بيت في مدح النبي ﷺ، كراسة في شرح " وقفت بساحل وقفت الأنبياء دونه "، وشرح النوري في العقائد[7].

2. رحلة الورثلاني العلمية:

تعتبر رحلة الحسين الورثلاني موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، وبالتالي فهي شهادة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عن البلدان التي مرّ بها في رحلته إلى الحجاز، وكان الدافع من هذه الرحلة كما ذكرها في مقدمة كتابه:" وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو والنحو إذ ليس لهم من غير الله فرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو

بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح بها علي أو منقولا من الكتب المعتبرة..."[8].

وعن مسار هذه الرحلة حسب خط سيره ذهاباً كالتالي: " مجانة، زمورة، بسكرة، سيدي عقبة، زلتين، مصراته، بلاد سرت، برقة، الإسكندرية، القاهرة، المدينة المنورة، مكة"[9]، أما في طريق العودة فقد مر بالقاهرة والإسكندرية وطرابلس وتونس والكاف وقسنطينة وزمورة ليصل إلى قريته بني ورثلان[10]، بحيث اشتملت رحلته على معلومات في غاية الأهمية اتصلت بالحياة اليومية والحالة المعيشية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات ونوعية اهتمامات العامة في البلدان التي تعرّف عليها في سفره أو أثناء إقامته بالحجاز[11]، كان الورثلاني على علم برحلات سابقيه مطّلع عليها، بحيث اعتمد فيما اعتمد عليه على أبي سالم العياشي (1628-1679م) في رحلته المسماة بـ "ماء الموائد"[12] سنة 1681م، كما اعتمد على أحمد بن ناصر الدرعي (1647-1715م) المسماة بالرحلة الناصرية سنة 1710 م[13].

أدى الحسين الورثلاني فريضة الحج مرتين أو ثلاث مرات، الأولى سنة 1153 هـ والثانية سنة 1186 هـ والثالثة 1179 هـ[14]، أتاحت له هذه الرحلات أن يوسع مداركه وثقافته وتجاربه وينمي معلوماته أثناء حجه وإقامته بالحجاز ومصر[15].

فقد قام بوصف الأماكن التي مر عليها بالتفصيل، كما وصف الورثلاني مصر وأهلها وعلماءها وعاداتها، ومنها تحدث عن ساحل البحر الأحمر وعن القرى والمدن التي تحاذيه وعادات القبائل، وعن الآبار والزراعة والحياة السياسية وعن علماءها الذين لقيهم في مكة أيام موسم الحج[16].

وبعد عودته إلى مسقط رأسه اعتكف للعبادة والتدريس والوعظ، واعتمد الحسين الورثلاني في رحلته على مصادر كثيرة بعضها تعلّق بالجزائر والمغرب العربي، والبعض الآخر بالمشرق ولا سيما الجزيرة العربية، واعتمد كثيرا على هذه المصادر في رحلته حتى أنه كان ينقل منها نقلا حرفيا طويلا تارة منسوب إلى صاحبه، وتارة غير منسوب وكما ذكرنا سابقا اعتمد على رحلات العياشي، الناصري الدرعي، المقريزي، بن فرحون، البكري، السيوطي، وبن رشد وغيرهم[17].

كما أنه رجع إلى مصادر أخرى لم يذكرها وقد بيّن الورثلاني في المقدمة أنه كان ينوي تأليف كتاب عن رحلة عظيمة تكون مفخرة له ولبلاده، وسرعان ما ظهر عليه الفتور فأكثر من النقل[18]، ويتضح لنا أن رحلة الحسين الورثلاني تعتبر موسوعة أخبار كبيرة للقرن 18 م، فهي من المصادر التي لا غنى عنها في هذا المجال، فتكرار أداء الورثلاني لفريضة الحج وإتقانه للغة العربية ومعرفته بعادات المشرق والمغرب جعلت منه حكما على العصر وأهله في كثير من المناسبات[19].

وتبدو عناية الورثلاني من خلال هذه الرحلة كبيرة بعلم التاريخ، ويتضح ذلك جليا في العنوان الذي اتخذته الرحلة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ"، كان هدف الورثلاني من تدوينها هو إبراز أهمية علم التاريخ وفضله

ومكانته بين العلوم الأخرى خاصة في ظل التراجع الذي شهده خلال العهد العثماني[20]، وفي هذا الشأن يذكر الورثلاني عن رحلته قائلا:" أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي فهي تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار..."[21].

وتتجلى أهمية هذه الرحلة في كونها اهتمت بالسرد التاريخي والوصف الجغرافي، فهي تعد من أهم المصادر التاريخية المحلية في القرن الثامن عشر الميلادي وذلك بالنظر لما احتوته من معطيات تاريخية وجغرافية متنوعة بتنوع الأمصار التي زارها والتي لا يمكن الاستغناء عنها للتعرّف على أوضاعها الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، والحجاز وهي المحطات الأساسية لرحلته[22]، ونخص بالذكر المحطة الأخيرة وهي الحجاز.

3. أوضاع الحجاز من خلال رحلة الحسين الورثلاني:

تعدّ رحلة الحسين الورثلاني من بين أهم الرحلات، احتوت العديد من الجوانب السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية لبلاد الحجاز:

3. 1 سياسيا:

ذكر أبو القاسم سعد الله من خلال الرحلة أن الورثلاني وصف النظام السياسي في الجزيرة العربية بالسيّئ، بحيث كانت الأوضاع فيها تسير من السيئ إلى الأسوأ، حتى أن الحج كاد يسقط في نظره، فقد أدى فريضة الحج الأولى في عهد الأمير مسعود بن سعيد الذي توفي سنة 1165 هـ، أما الحجتان الثانية والثالثة كانتا في عهد الأمير مساعد بن سعيد أخو مسعود المتوفى سنة 1183 هـ، ولاحظ الورثلاني أن الأمور السياسية ساءت كثيرا، والظلم انتشر حتى لم يعُد للمرء الآمان في الحجاز من كثرة الاعتداءات، ليس من طرف الناس بل حتى من طرف الولاة أنفسهم[23]، قارن الحسين الورثلاني بين عهدي الأمير مسعود والأمير مساعد وقال:" وهذا كله يرشد إلى أن الزمان قد زاد في الظلم والتعدي " وأضاف:" أن الحج كاد أن يكون ساقطا من ظلم الولاة وأصحابهم"[24].

ولم يُصب هذا التدهور الأوضاع السياسية فحسب بل تعداه في نظر الورثلاني إلى الأوضاع الدينية، فقد ذكر أنه رأى إحدى المساجد وقد تهدم وامتلأ أوساخا وصار اصطبلا للدواب، وهذا باستنتاجه في ضعف اهتمام أولياء الأمور بالدين فلما سكت العلماء زاد الناس في البدع واصفا ذلك بقوله:" لقد ضعف الدين وقلت الرغبة في الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الأولين والآخرين"[25].

وذكر الورثلاني قصة دخوله على أمير مكة السلطان مساعد في داره، بعد ما أغار اللصوص على إبل المركب الجزائري فأوفد الحجاج الورثلاني الذي كان من أهل العلم والصلاح ليخاطبوا الأمير في ذلك، فأذن الأمير للورثلاني بالدخول لوحده، فاعتذر له ووعده بإرجاع الإبل المسروقة، وذكر الورثلاني عن الأمير قوله:" ما ضيع الأحكام إلا الأشراف فان أمرهم قد قوي علي وعلى غيري"[26] وهذا ما يدل على أن الأوضاع الأمنية كانت صعبة،

فطغى على رحلة الورثلاني بصفة عامة موضوع واحد وهو الأمن العام، بسبب الاعتداءات المتكررة على قوافل الحجاج وبالتالي فالحاج لم يكن آمنا على نفسه في الطريق[27].

3. 2 اقتصاديا:

تعد الأوضاع الاقتصادية من الجوانب التي لم يتطرق إليها الرحالة الجزائريين بصفة كبيرة، ماعدا الورثلاني الذي ذكرها بصفة وجيزة وسطحية، فأين ما حل وارتحل وصف المنطقة وأسواقها وخيراتها التي لا تنعدم، فذكر لما وصل الناس إلى منطقة وهي أول مكان ببلاد الحجاز بالعمارة استبشروا خيرا لما يُقضى فيها جميع الحاجيات وفيها الحبوب والثمرات، بالإضافة إلى باقي القرى التي بها مزارع ونخل وعيون جارية[28].

3. 3 اجتماعيا وثقافيا:

اتسمت الحياة الاجتماعية والثقافية في منطقة الحجاز ما نقله الورثلاني عن عادات أهل المدينة بحيث يجتمع الناس ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي، وتأتي جماعة من المنشدين وينشدون قصائد، ويصف الأجواء الدينية في المسجد النبوي بحيث يؤتى بأغطية من الديباج الأسود المرصع بالذهب وتعلّق على أبواب المسجد. أما عقد القران بالمسجد النبوي فيأتي كبار القوم فيشرع في الخطبة ثم توزع أطباق من اللوز والسكر ويفرق على الحاضرين، ويقوم منشد ينشد قصيدة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام[29].

أما الحياة العلمية فقد اهتم الورثلاني بها ولكنه لم يسجل أخبارها بنفس التفاصيل الذي سجلها عن عادات وتقاليد أهل مكة والمدينة، أو أحوال المدن والقرى والمياه والطرق التي مر بها، فقد ذكر عن علماء مصر الذين درسوه وأخذ عنهم وأجازوه وناقشهم في بعض المسائل، أما في الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز لم يذكر إلا القليل، فقد نقل عن العياشي والدرعي عددا من أسماء العلماء وسيرهم وأخبارهم في كل من المدينة ومكة، ولما جاء دوره قدّم معلومات قد لا تفيد الباحث[30]، قال الورثلاني بعد نقله لأخبار العلماء والمفتيين الذين لقيهم الدرعي في مكة وأما من فيها فقد لقيت كثيرا من الفضلاء الأجلة والبدور الأهلة[31].

كما التقى بأحد علماء البحرين من فقهاء المالكية أثناء ذهابه إلى عرفات، ووصفه بالعظمة في الفقه فسأله الورثلاني عن أهل البحرين فقال أنهم مالكيون بالأغلبية[32]، والظاهر أن الورثلاني كما قال أبو القاسم سعد الله كان مهتما بالمذاهب والملل، فهو رجل مالكي المذهب، حسني النسب، حسب دعواه، طرقي السلوك، لا يمل في بحثه عن الأنساب ورجال الإصلاح وأصحاب الكرامات والولايات[33].

أما في المدينة فقد ربط علاقة علمية مع أحد العلماء وهو الشيخ السمان القرشي المدني، فقد زاره في داره بالبقيع ووجد عنده مجلسا من العلماء فأطعمه طعاما لم يذق مثله أبدا، فقد وصفه الورثلاني بأنه:" الصفي الودود التقي، ذي الأحوال الصادقة والأنفاس الطيبة، والأعمال الزكية والمواجد الإلهية، والمعارف الربانية والعلوم الدينية صاحب الأوراد والمريدين"[34].

4. منهج الورثلاني في الكتابة:

تعتبر الرحلة الورثلانية من أبرز الرحلات التي شهدتها الجزائر في الفترة العثمانية، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فهو عبارة عن سجل لما عاشه وشاهده سواء تعلق الأمر بالحج أو بالحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية للبلدان التي مر بها إلى غاية تدوينه لهذا العمل الذي ارتقى إلى عمل تاريخي سنة 1182 هـ/ 1769 م، فهذه الرحلة شبيهة برحلات العياشي والناصري فقد ظل مشدوداً إلى كتاباتهم[35]، والواقع أن رحلة أبي راس الناصري تختلف عن الرحلة الورثلانية رغم تناولهما الرحلة إلى الحجاز، فرحلة الناصري تبدو علمية أكثر منها دينية لاهتمامه بالعلم والعلماء[36].

إن أول ميزة في منهج الكتابة عند الورثلاني هي كشفه لنا عن نوعية وقيمة رحلته بوصفها مصدرا مهما من مصادر التاريخ الجزائري، فقد أظهر ميولاته القوية نحو علم التاريخ، وأكّد على مكانته بين العلوم الأخرى وأهميتها في فهم الحياة واستيعاب العبر من التجارب السابقة، فمنزلة العالم تقاس بمدى إلمامه بالتاريخ وأخبار الأمم والحضارات، وأي علم أشرف من هذا العلم وفائدته ظاهرة، لأن في الرحلة وبعض علم التاريخ يرجع إلى علم السيرة النبوية، فهي تجمع عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية،[37]. فقد قام كمؤرخ بوصف دقيق للأماكن التي زارها والشخصيات التي لقيها ودوّن فيها ملاحظاته، والمعلومات التي استقاها عما رُوي له من طرف شخصيات التقاها، بالإضافة اعتماده على سرد الأحداث التاريخية.

ومن بين الإشارات التي لاحظناها في رحلة الورثلاني هي طريقة التدوين التي لا تختلف كثيرا عن طريقة تدوين كتب التراجم والمناقب، فإذا كانت الرحلات عامة لا تشمل إلا على ذكر ما يشاهد وما يسمع أثناء الرحلة، فإن الرحلات الحجازية تتضمن جانب الوصف، التي اعتمدها الورثلاني في وصف الجزيرة العربية فخصّص الحديث عن منطقة الحجاز وما فيها من فوائد كثيرة[38].

ومن بين الأماكن التي نالت إعجاب الورثلاني ودوّن ملاحظاته مصر، زيادة على استخدامه عنصر الوصف استعمل عنصر المقارنة بحيث قدّم لنا مقارنة بين الاهتمام بالعمران في مصر والجزائر، إذ يصف أهل هذه الأخيرة بإهمال العمران على عكس أهل مصر فيقول واصفا مسجد السلطان حسن بأنه:" مسجد لا ثاني له في مصر ولا غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه وأحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل شواهق الجبال"[39]، ويسترسل في قوله:" أما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجد عظيما قد أحدث، بل ولا مهدما قد تجدد أو واهيا قد أصلح بل لو سقط شيء من اكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه أن كان مبنيا بالرخام أن يعاد بأجر وجص وان كان مجصصا ان يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير من كل لون رقعة وإلى الله المشتكى"[40].

كما استعمل الورثلاني الأسلوب القرآني في العديد من العبارات داعيا إلى التحلي بالصفات الحميدة، لأن فيها الاعتبار والدلالة على قدرة الله تعالى مثلا دعوته إلى الصبر عند البلاء، مذكرا بصبر أولوا العزم من الرسل لحمل أعباء المصائب، مستشهدا بالأحاديث النبوية في الكثير من المناسبات، كما وظّف الشعر كوسيلة في الدلالة على الحقائق التاريخية والأدب[41].

اعتمد الورثلاني في منهجه على نوعين من المصادر وهي مصادر شفوية كما أسلفنا الذكر مما سمعه، حيث سجّل كل ما رآه ويكثر استعمال الأفعال ويذكر عما سمعه مثلا عن الشيخ عمر الطحلاوي يقول:" وسمعت منه بعض الرسالة الوضعية وبعض التفسير" وأيضا مما سمعه من الشيخ الزياني الشافعي الذي قال:" وممن سمعت منه أيضا بعض المسائل من النحو..."[42]، كما اعتمد على بعض المصادر بالمخاطبة المباشرة في قوله:" وقد أخبرني شيخنا أبو المهدي عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه الى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي"[43].

كما نلمس في أسلوب الورثلاني الوضوح والبعد عن التكلف مكتفيا بالمفردات والعبارات المتداولة عند الجميع، وان طغى عليها على حد قول أبو القاسم سعد الله :" أنه كثر فيها الخطأ كما افتقرت إلى المنهج القويم وامتلأت بالاستطرادات والتكرار"[44] ويرجع ذلك لكون الورثلاني لم يكتب بيده وإنما أملاها على تلاميذه كما جرت عادة المشايخ، لذلك تعددت النسخ حتى قيل أنه أملى جزءً من رحلته على أحد علماء جربة بتونس[45]، وأيضا نجد أن الورثلاني رسم مصادر لرحلته وهو في الحقيقة خريطة جغرافيا مصحوبة بتواريخ تفصيلية يربط فيها التواريخ بالأماكن ربطا محكما يحدد لنا المسافة المقطوعة بين منطقتين، كما يجمع بين التاريخ الهجري والميلادي ويحدد الأيام والشهور والسنة، بدايةً من الرحلة والمدة التي استغرقتها الرحلة إياباً وذهاباً[46].

5. القيمة العلمية والأدبية للرحلة الورثلانية:

تعدّ الرحلة الورثلانية مصدرا مهما وذات قيمة علمية لدراسة البلدان الواقعة في طريق الركب الحجيجي ونعني الجزائر، تونس، طرابلس الغرب (ليبيا)، مصر، والحجاز، كما يفيد كثيرا في دراسة بلدان المغرب العربي خاصة في العصرين الوسيط والحديث، نظرا لاعتماده على الأخذ والعطاء بمجالسة العلماء والحصول على الإجازات العلمية منهم، وبهذا أصبح الحسين الورثلاني رسول علم ومعرفة وحلقة اتصال وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب الأوسط[47].

يمكن الاستفادة من الرحلة الورثلانية من المادة التاريخية الغزيرة في إعادة صياغة تاريخ الفترة العثمانية للجزائر وغيرها، وذلك بفضل التغطية التاريخية الشاملة للبلاد، على عكس الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين اكتفوا بالتركيز على مدينة الجزائر فقط، كما اعتمد الفرنسيون على الرحلة بعد أن عرفوا على قيمتها التاريخية الكبيرة كمصدر أساسي لتلك الفترة من تاريخ الجزائر، في التعرف على عادات وتقاليد منطقة القبائل، حتى يتمكنوا من فرض سيطرتهم عليها والحد من أخطارها، ولنا في ذلك شارل فيرو Charles Feraud (1829- 1888) في دراسة عن مدينة بجاية سنة 1869 [48]، وفي مطلع القرن العشرين لما ازداد اهتمام الباحثين بالورثلاني، ترجم أبو القاسم الحفناوي له في القسم الثاني من كتابه " تعريف الخلف برجال السلف" الذي طُبع بالجزائر سنة 1906 كما ذكرناه سابقا، وصحّح محمد بن أبي شنب الرحلة معتمدا على أربع نسخ التي بذل فيها جهدا كبيرا، معترفا بأنه رغم هذا الجهد الكبير إلا أنه لم يبلغ منزلة تسمو إلى النقد[49]. زيادة على ذلك اهتم مارسيي Mercier بالرحلة الذي طالب بترجمتها إلى اللغة الفرنسية سنة 1931، والتي نشرت سنة 1951 في المجلة الإفريقية[50]، ليُفتح المجال فيما بعد للاهتمام برحلة الورثلاني لما لها من قيمة تاريخية كبيرة.

وعموما تجلت القيمة التاريخية والعلمية لرحلة الورثلاني في الخصائص التالية:

- التزامه بالصدق فيما أورده من معلومات لا زيادة فيها ولا نقصان، بحيث عبّر بصراحة عن رأيه منتصرا للحق.

- التزامه بعرض الواقع كما هو دون تحريف أو تشويه، مما دفعه بانتقاد الحكام والولاة لانعدام الأمن وسوء الأخلاق.

- تحرى الحقيقة بالعودة إلى المصادر السابقة أمثال العياشي والبكري وغيرهما.

- كما تحلى الورثلاني بالتقوى والورع في مدحه للناس الصالحين والعلماء وتتبع آثارهم.

- التزامه بالأسلوب القرآني والنبوي الغني بالمحسنات البديعية من خلال اقتباساته من القرآن والسنة.

6. الخاتمة:

تعتبر رحلة الورثلاني " نزهة الأنظار" من أهم الرحلات المغاربية فهي مصدر أساسي للمؤرخين والباحثين من حيث محتواها ومن حيث المرحلة التاريخية التي أرخت لها، فقد دوّنت فيها الشخصيات التي لقيها ووصف الأماكن وصفا دقيقا كما سرد مختلف الأحداث التاريخية التي لقيها وترجم لبعض سير الصالحين، ومن ثمة تعدّ الرحلة الورثلانية مصدرا مهما وذات قيمة علمية لدراسة البلدان الواقعة في طريق الركب الحجيجي ونعني الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، والحجاز، كما يفيد كثيرا في دراسة بلدان المغرب العربي خاصة في العصرين الوسيط والحديث.

ويعدّ القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي من أهم القرون التي أسهم فيها المغاربة إسهاما واضحا في كتابة رحلاتهم بمختلف أنواعها مقارنة بالقرون الماضية، ونجد أن رحلات الجزائريين قليلة الإنتاج مقارنة بكتاّب الرحلات المغربية، وهذا راجع إلى عدم رجوع الرحالة الجزائر ليكتب ما رأى ويدوّن رحلته وقد ضاع العديد من هذه الرحلات وبعضها لم يصل منها إلينا إلا القليل.

وما ميّز رحلة الورثلاني عن بقية الرحلات أنه التزم الصدق في كل ما أورده من أحداث، وتحرى الحقيقة باللجوء في بعض الأحيان لاستكمال الوصف إلى كتب الرحالة السابقين، عدم رضاه عن الواقع بالانطباع الذي أبداه في وصفه للأوضاع المزرية في منطقة الحجاز باستعماله للعبارات القاسية، التزامه الأسلوب المميز بكثرة المحسنات اللفظية والكلمات المترادفة في شكل موزون، وتحليه بالورع والتقوى بالثناء على الأشخاص الذين تعرف عليهم مادحا إياهم بالتقدير والإجلال[51].

7. الهوامش:

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 394.

[2]- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزء 2، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص ص 139 و 147.

[3]- سعد الله، مرجع سابق، ص 394.

[4]- الحسين بن محمد الورثلاني، الرحلة الورثلانية، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تح: محمد بن أبي شنب، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص ص 17، 18 و 145، 146.

[5]- عبد القادر صحراوي، الورثلاني: مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار، مجلة الحوار المتوسطي، العددان 9و10، ص 99.

[6]- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، البصائر الجديدة، الجزائر، د.س، ص 452.

[7]- الورثلاني، الرحلة الورثلانية، مصدر سابق، ص ص 16، 17.

[8]- نفسه، ص 13.

[9]- عائشة دباح، " الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات"، مجلة قضايا تاريخية، العدد 8، 2017، ص 53.

[10]- صحراوي، الورثلاني، مرجع سابق، ص 109.

[11]- حنيفي هلايلي، " الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثلاني وأبو راس الناصري، مجلة الشهاب الجديد، المجلد 7، العدد 7، 2008، ص 22.

[12]- وتعرف بالرحلة الكبرى سنة 1661م وتعتبر من أهم الرحلات المغاربة كونها تحمل الكثير من المواضيع عن تراجم العلماء والأصول الفقهية والأدبية وعادات المجتمعات وغيرها، إذ تشكل موسوعة ثقافية تعرضت إلى جوانب ثقافية، اجتماعية، تاريخية، واقتصادية للنصف الثاني من القرن 17م انطلاقا من المغرب إلى مدن شامية مرورا بالجزائر وتونس وليبيا ومصر والحرمين الشريفين، للمزيد ينظر، عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661- 1663)، تح، تق، سعيد القاضي، سليمان قريشي، المجلد 1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص 53.

[13]- وعرفت بالرحلة الناصرية (1709- 1710) وهي من أشهر مؤلفاته، من المغرب الى المشرق وتعتبر الرحلة الرابعة وهي ثمرة الرحلات السابقة، ضمت أخبار رحلته فوائد علمية امتازت بوفرة المعلومات للمناطق التي زارها، للمزيد ينظر، أحمد كرعي، مصر والحجاز من خلال رحلة ابن ناصر الدرعي، رسالة ماجستير، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2014- 2015، ص80.

[14]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 394.

[15]- حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص 23.

[16]- سعد الله، مرجع سابق، ص 395، 396.

[17]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص ص 188، 189.

[18]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 396.

[19]- نفسه، ص 398.

[20]- عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني 1518- 1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2015-2016، ص 210.

[21]- الورثلاني، مصدر سابق، ص ص 12، 13.

[22]- حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص ص 22، 23.

[23]- سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص 189.

[24]- الورثلاني، مصدر سابق، ص 442.

[25]- نفسه، ص 360.

[26]- نفسه، ص 421.

[27]- سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص ص 190، 191.

[28]- محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، مج 1، ط1، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، جدة، 2000، ص ص 362، 363.

[29]- الورثلاني، مصدر سابق، ص ص585، 586.

[30]- سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص 195.

[31]- الورثلاني، مصدر سابق، ص 425.

[32]- نفسه، ص 389.

[33]- سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص 196.

[34]- الورثلاني، مصدر سابق، ص 530.

[35]- بكاري، مرجع سابق، ص 210.

[36]- حنيفي هلايلي، مرجع سابق، ص 25.

[37]- عبد القادر بكاري، حسين الورثلاني والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة ب" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الناصرية، المجلد 8، العدد 1، 2017، ص 50.

[38]- محمد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء، تر: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، ج1، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2004، ص 3.

[39]- الورثلاني، مصدر سابق، ص 318.

[40]- نفسه، ص 319.

[41]- بكاري، مرجع سابق، ص 211.

[42]- الورثلاني، مصدر سابق، ص ص 350، 351.

[43]- بكاري، مرجع سابق، ص 212، 213.

[44]- سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ص 188.

[45]- نفسه، ص 188.

[46]- بكاري، مرجع سابق، ص 211.

[47]- نفسه، ص 220.

[48]- صحراوي، مرجع سابق، ص 110.

[49]- الحسين بن محمد الورثلاني، الرحلة الورثلانية، مصدر سابق، ص 9.

[50]- صحراوي، الورثلاني: مقدمة عن رحلته، مرجع سابق، ص 108.

[51]- سعيدوني، مرجع سابق، ص ص 454، 455.